الفصل الثاني

السبيكة القرآنيّة

عرف العرب ظاهرةً لغويّةً ليست غريبةً على اللغات الأخرى، وهي أنّ ثروةً من الألفاظ والتراكيب والعبارات والأبنية الشعريّة كانت متداوَلةً ومتبادَلةً بين الشعراء الجاهليّين يستمدّون منها مادّتهم اللغويّة للتعبير عن أفكارهم ثمّ لا يكادون يخرجون عنها، بحيث بات لهم منها قوالب ثابتةٌ تُكوّن أساس النسيج اللغويّ لمعظم أشعارهم.

ونستطيع أن نعيد أكثر ما بين أيدينا من مادّة الشعر الجاهليّ إلى بضع عشراتٍ من القوالب اللغويّة الأساسيّةٍ كانت هي المتداولة في السوق الشعريّة حتّى نزول القرآن الكريم، وتشكّل ما يمكن أن نسمّيه البِنية التحتيّة للبناء اللغويّ الشعريّ. واستمرّ كثيرٌ من هذه القوالب بعد القرآن، وما يزال بعضها حيّاً عند كثيرٍ من الشعراء، مع اختلافٍ في نسبة استخدامها لدى كلٍّ منهم، وفي نسبة السبائك الجديدة التي يختصّ بها كلّ شاعر، وهي نسبةٌ تظلّ عند الجميع، مهما بلغت مكانة الشاعر في التجديد، دون نسبة السبائك التقليديّة السائدة. وربّما انسحب الأمر على لغة النثر أيضاً وإن كنّا لا نكاد نملك أيّة نماذج جاهليّةٍ كاملةٍ منه.

كانت هذه القوالب بمثابة وحداتٍ أو سبائك لغويّةٍ أوّليّةٍ يقوم عليها البناء اللغويّ العامّ للقصيدة أو النصّ الأدبيّ، وكان من النادر للشاعر أو الكاتب أو الخطيب أن يخرج عنها أو يضيف إليها سبيكةً جديدةً تُغْني البناء اللغويّ القديم، فإذا تمّ له مثلُ هذه الإضافة ففي حركةٍ بطيئةٍ لا تكاد تتبيّن لنا إذا حاولنا أن نلاحق الخطّ البيانيّ لتطوّر اللغة الشعريّة أو الأدبيّة عند العرب على مرّ السنين.

السبيكة الشعريّة:

بإمكاننا أن نضع أيدينا على هذه الحقيقة لو استدعينا بعض السبائك اللغويّة التي تتردّد عند عددٍ من الشعراء العرب، على تباعد الحقب التي عاشوا فيها، لنرى كيف التزم بها الشاعر المتأخّر كما وردت ابتداءً عند الشاعر المتقدّم.

لقد كانت هذه السبائك عند الجاهليّين أشبه بالمقصوصات الكرتونيّة (جيغ سو) أو بورق اللعب، فهي أمامهم قطعٌ جاهزةٌ للّعب بها وتشكيل مجسّماتٍ لغويّةٍ، قد تكون بأعيننا جديدةً وهي القصائد، ولكنّها في حقيقتها قديمةٌ بقوالبها أو الموادّ الأوّليّة التي صُنعت منها وبُنيت أشكالها الجديدة عليها.

ومن السهل أن نميّز في الأبيات الخمسة التالية لبعض الشعراء الجاهليين أو المخضرمين (جاهليّين/إسلاميّين) واحدةً من أقدم السبائك وأشهرها في ديواننا العربيّ:

- ولـيـلٍ كـمـوجِ الـبـحـرِ أرخـى سُـدولَـه
عـلـيَّ بـأنـواعِ الـهـمـــومِ لـيَـبـتـلـي
- وعَـنْـسٍ كـألـواحِ الإرانِ نـسـأتُـهـا
عـلـى لاحِـبٍ كـالـبُـردِ ذي الـحَـبِـراتِ

امرؤ القيس (ت80 ق.هـ)

وخَـرقٍ كـظَـهـر الـتُـرسِ قَـفْـرٍ قـطـعـتُـهُ
بـعـامـلـتـيـنِ، ظَـهـرُه لـيـس يُـعـمـلُ

الشَنفرَى (ت70 ق.هـ)

وخَرقٍ كنَصلِ السيفِ قد رامَ مَصدَفي
تـعـسّـفـتُـه بـالـرُّمـحِ والـقـومُ شُـهّـدي

حاتم الطائيّ (ت46 ق.هـ)

وخيلٍ كأسرابِ القَطا قد وَزَعْتُها
على هيكلٍ نَهْدِ الجُزارةِ مُرمَدِ

دُريد بن الصِمّة (ت8هـ)

إنّ الأبيات الخمسة - وهي غيضٌ من فيض الأبيات العربيّة العديدة التي بُنيت على نمطها- تبدأ بسبيكةٍ واحدةٍ مؤلَّفةٍ من خمسة أجزاءٍ في أربع كلمات:

(1) مبتدأٌ، هو المشبّه، مجرورٌ لفظاً بواو (رُبَّ) التي تسبقه، ثمّ:

(2) خبرٌ هو الكاف التي بمعنى (مثل)، وهذه مضافةٌ إلى:

(3) اسمٍ هو المشبّه به، وهذا مضافٌ أيضاً إلى:

(4) مضافٍ إليه متمِّمٍ للمشبّه به.

(5) ويليها جميعاً فعلٌ ماضٍ مرتبطٌ بضميرٍ يعود على المبتدأ.

إنّها تركيبةٌ نحويّةٌ بدأت ذاتَ مُلكيّةٍ خاصّةٍ عند شاعرٍ جاهليٍّ قد يكون من الصعب تحديده من غير تعسّف، ثمّ ما لبث الشعراء أن أُعجبوا بها وتداولوها وتوارثوها حتّى تحوّلت إلى سبيكةٍ عامّةٍ يصعب على غير الشاعر العبقريّ الفكاك من أسرها.

والأبيات الخمسة جميعاً جاءت من البحر الطويل، فلكلّ بحرٍ من البحور العربيّة الستة عشر سبائكُه اللغويّة الخاصّة التي لا تصلح، بحكم بنائها اللغويّ، للبحور الأخرى، وعلى هذا فإنّ السبيكة في الشعر ذاتُ بناءٍ عروضيٍّ ونحْويٍّ معاً، ولنا أن نضع لهذه السبيكة التي أمامنا هذا الميزان العَروضيّ والنحْويّ: (وعَمَلِنْ كعمَلِ العمَلِ عمِلتهُ)[1].

(1) سيلاحظ القارئ أنني فضّلت أيضاً في موازين السبائك القرآنيّة استخدام الفعل (عمل) على الآخر الذي اقترحه الخليل بن أحمد لعروض الشعر العربيّ (فعل) تجنّبا لأيّ شبهةٍ ولأيّ لَبسٍ أو اختلاطٍ بين المقاييس القرآنيّة والمقاييس الشعريّة.

هذه "القواسم اللغويّة" المشتركة التي كان يتقاسمها الشعراء على موائد الشعر لم تتوقّف، كما ذكرنا، عند عصرٍ معيّن، بل نجدها متناثرةً في دواوين الشعراء على مدى أحقابٍ متباعدة، بحيث كَوّنت الخزّانَ الأكبر الذي كان يستقي منه الشعراء العرب، ولقرونٍ عديدة، وحداتِهم اللغويّة الأساسيّة في أيّة قصيدةٍ يكتبونها.

ونسوق هنا نماذج لسبيكةٍ شعريّةٍ أخرى تردّدت في أبياتٍ تفصل بينها مسافاتٌ زمنيّةٌ شاسعة، من غير أن يغيّر الزمانُ أيّ عنصرٍ من عناصر تركيبتها اللغويّة الأولى، وإن تباعدت المعاني التي تعبّر عنها:

إذا أنتَ لم تنفعْ بوُدّكَ قُربَةً
ولم تَنْكِ بالبؤسَى عدوَّكَ فابعِدِ

طَرَفة بن العبد (ت60 ق.هـ)

إذا أنتَ لم تُعرِضْ عن الجهلِ والخَنا
أصَبتَ حليماً أو أصابكَ جاهلُ

زهير بن أبي سُلمى (ت13ق.هـ)

إذا أنتَ لم ترحلْ بزادٍ من التُقى
ولاقيتَ بعدَ الموتِ من قد تَزَوّدا

ندمتَ..

الأعشى (ت7هـ)

إذا أنتَ لم تنفعْ فضُرَّ، فإنّما
يُرَجَّى الفتى كيما يَضُرَّ وينفعا

النابغة الجعدي (ت50هـ)

إذا أنتَ لم تَعشَقْ فتصبحَ هائماً
ولم تكُ معشوقاً فأنتَ حمارُ

مجنون ليلى (ت68هـ)

يقول لكَ العقلُ الذي بيّنَ الهدى:

إذا أنتَ لم تدرأ عدُوّاً فدارِهِ

المعرّي (ت449هـ)

والسبيكة اللغويّة التي تنتظم هذه الأبيات هي سبيكةٌ خماسيّةٌ مؤلَّفةٌ من:

(1) أداة الشرط (إذا)

(2) يليها الضمير (أنتَ)

(3) يليه حرف الجزم (لم)

(4) يليه فعلٌ مضارعٌ

(5) يليه فاءٌ مرتبطةٌ بفعلٍ غالباً

ونستطيع العثور على هذه السبيكة (وميزانها: إذا أنت لم تعملْ فاعمل، أو: عملْتَ) في عشرات الأبيات الأخرى على مدى قرونٍ تمتدّ إلى عصرنا هذا، وبدهيٌّ مرّةً أخرى، وبسبب طبيعتها اللغويّة الثابتة، أن نجدها دائماً في البحر الطويل دون غيره من البحور.

وهكذا سنميّز بسهولةٍ عديداً من السبائك اللغويّة المختلفة التي اتّخذ منها الشعراء على مدى العصور وحداتٍ أساسيّةً وإطاراتٍ لا بدّ منها لإقامة أبنيتهم الشعريّة، كما في هذه الأبيات الأربعة التي تجمع بينها سبيكةٌ شاعت هي أيضاً عند أكثر الشعراء القدماء، في الجاهليّة والإسلام:

ألا أيُّهذا اللائمي أحضُرَ الوغى

وأنْ أشهدَ اللذّاتِ، هل أنتَ مُخْلِدي

طَرَفة بن العبد (ت60ق.هـ)

ألا أيُّهذا السائلي: أين يمّمَتْ

فإنّ لها في أهلِ يثربَ موعدا

الأعشى (ت7هـ)

ألا أيُّـهـذا الـمُـؤتَـلـي إنّ نَـهْـشـلاً
عَـصَـوا قـبـلَ مـا آلـيـتُ مُـلْـكَ بـنـي نَـصـرِ

نهشل بن حري (ت45هـ)

ألا أيُّـهـذا الـمُـوعِـدي وسْـطَ وائـلٍ
ألـسـتَ تـرى زاري وعِـزَّ نـصـيـري

الأخطل (ت90هـ)

فالسبيكة الخماسيّة التي تنتظم الأبيات الأربعة مؤلّفةٌ من:

(1) أداة الاستفتاح (ألا)

(2) يليها المنادى (أيّ)

(3) وهذا يرتبط باسم الإشارة (هذا)

(4) ويتلو اسمَ الإشارة دائماً بدلٌ يجب أن يكون اسمَ فاعلٍ معرَّفاً بال

(5) واسم الفاعل هذا لا بدّ أن يكون متّصلاً بياء المتكلّم، فإن لم تتيسّر فبياءٍ أصليّة، كما في بيت نَهْشَل بن حَرِيّ الذي استخدم اللفظ (المُؤتلي).

ومرةً أخرى تأتي الأبيات هنا من الطويل، وميزانها العَروضيّ والنحْويّ (ألا أيُّهذا العاملي/ المُعمِلي).

وأعرض فيما يلي قائمةً من أشهر السبائك الجاهليّة التي طغت بسحرها على ألسنة الشعراء في تلك الفترة، ثمّ تسرّبت ممتدّةً إلى حقبٍ عديدةٍ بعدهم. ولم أحتجْ لاختيار هذه النماذج إلى أكثر من بضع دقائق نظرت خلالها في صفحاتٍ قليلةٍ من الشعر الجاهليّ، واخترتها من صدور الأبيات فحسب، وفي هذا ما يكفي من دلالةٍ على سعة حجم هذه الظاهرة في شعرنا العربيّ:

ومَن يَكُ ذا . .

وإنّي امرُؤٌ إنْ . .

ألا طَرَقَتْ رَحلِي . .

ألا هل أتى عنّا . .

ألا يا لَهْفَ هندٍ . .

ألا مَنْ مُبْلِغُ الحيَّيْن عنّي . .

ألا ليتَ شِعري هل . .

ألا قَبَّحَ اللهُ البَراجم . .

ألا انعِم صباحاً أيُّها الربع . .

ولا عيبَ في اليَحموم . .

خليليَّ مُرّا بي . .

أمِنْ آلِ أسماءَ الطُلولُ الدوارسُ . .

يا صاحبيَّ تَلَوَّما . .

لَعَمرِيْ لَنِعْمَ المرءُ . .

ودِّعْ أُمامَةَ إنّ . .

أَهاجَكَ مِن أسماءَ رَسْمُ المَنازل . .

لا يُبعِدِ اللهُ جيراناً . .

ولستُ بذاخِرٍ لِغدٍ طعاماً . .

سَما لكَ شوقٌ بَعدما كان . .

أَمِنْ ذِكْرِ سلمى . .

لِمَنْ طَلَلٌ بينَ الجَديّةِ . .

وتغطّي السبيكة عادةً جزءاً من الشطر، ولكنّها قد تمتدّ لتستغرق الشطر بكامله، أو قد تتجاوزه، كما في بيت أحمد شوقي المشهور الذي قاله بعد هزيمة أحمد عرابي:

صَغارٌ في الذَهابِ وفي الإيــابِ أهذا كلُّ شـــأنِكَ يا عرابي

وقد نقل السبيكة المحوريّة فيه عن الشاعر العبّاسيّ أبي الحسن الأنباريّ حين رثى ابنَ بقيّة بعد أن صلبه عضُد الدولة، فقال:

عُلُوٌّ في الحياةِ وفي الممـــاتِ بحقٍّ أنتَ إحدى المعجـزاتِ

هكذا كانت المدرسة اللغويّة الشعريّة في تعاملها مع الأبنية الأساسيّة للقصيدة الجاهليّة عشيّة نزول القرآن الكريم بين ظهرانَي العرب. لقد قلبتْ لغةُ الوحي هذه الموازين جميعاً، وفَتّتت السبائكَ المتوارثة، وخرجت على النسيج اللغويّ التقليديّ لتوجِد لنفسها نسيجَها الخاصّ، وليكون لها سبائكها اللغويّة الجديدة التي ستُحْدث هزّةً في سجلّ اللغة الأدبيّة عند العرب.

ولن تقتصر هذه السبائك الجديدة على جزءٍ من المساحة اللغويّة لآيات القرآن الكريم، بل ستغطّي هذه المساحة تماماً بحيث تستطيع أن تميّز قرآنيّتها من خلال خزعةٍ عشوائيّةٍ واحدةٍ تتناولها من أيّة سورةٍ أو صفحةٍ أو سطرٍ من أسطر القرآن الكريم، بل من خلال ما هو أصغر حجماً من السبيكة، كالتعبير أو التركيب، وأحياناً اللفظ.

معظم سبائك القرآن لا يتكرّر:

إنّ "النكهة" المميَّزة جدّاً للسبائك القرآنيّة من شأنها أن تجعلنا نستنتج أنّ تكرارها في القرآن بكثرةٍ، مع جِدّتها واختلافها جميعاً عن السبائك العربيّة المعروفة، هو السبب في سهولة تمييزنا لها وسرعة إدراكنا لقرآنيّتها.

والواقع أنّ عدداً لا بأس به من السبائك يتكرّر بكثرةٍ في القرآن، داخل السورة نفسها وخارجها، كمثل هذه الآيات:

- ﴿يا أيُّها المُدّثِّر﴾ [المدّثّر: 1]
- ﴿يا أيّها المُزّمِّل﴾ [المزّمّل: 1]
- ﴿والمُرسَلاتِ عُرْفا. فالعاصفاتِ عَصْفا. والناشراتِ نَشْرا. فالفارِقاتِ فَرْقا﴾ [المرسَلات: 1-4]

- ﴿والنّازِعاتِ غَرْقا. والناشِطاتِ نَشْطا. والسابحاتِ سَبْحا. فالسابقاتِ سَبْقا﴾ [النازعات: 1-4]

- ﴿إذا الشمسُ كُوِّرَتْ. وإذا النجومُ انكدرتْ. وإذا الجبالُ سُيِّرَتْ. وإذا العِشارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: 1-4]

- ﴿إذا السماءُ انفطرَتْ. وإذا الكواكبُ انتثرَتْ. وإذا البِحارُ فُجِّرَتْ. وإذا القُبورُ بُعثِرَتْ﴾ [الانفطار: 1-4]

نعم، إنّ مثل هذا التكرار للسبائك ظاهرةٌ واضحةٌ تماماً في القرآن الكريم، ولا سيّما في السوَر القصيرة، ولكنّ العجيب أنّ ما لا يتكرّر من السبائك القرآنيّة، مع وضوح ظاهرة التكرار هذه، أكثر بكثيرٍ ممّا يتكرّر.

إنّ معظم السبائك يرِدُ في القرآن مرّة واحدةٍ لا أكثر، وتظلّ له، مع ذلك، نكهته المميّزة الواضحة. أمّا سبائكنا البشريّة، شعراً كانت أو نثراً، فمن الصعب تمييزها واستقرار شكلها وبنائها في أذهاننا وذواكرنا إذا لم تتكرّر مرّاتٍ عديدةً، فتألُفها بذلك نفوسنا وتتعوّدها مسامعنا. إنّها خصيصةٌ عجيبةٌ أخرى من خصائص لغة الكتاب الحكيم: ائتلافُنا لسبائكه التي لا تتكرّر أبداً مهما كانت كثيرة.

وقد يقال: ولماذا تخصّ القرآن وحده بالسبائك المتفرّدة، فلكلّ كاتبٍ سبائكه الخاصّة أيضاً، ولها خصائصها وبناؤها المتميّز؟ هذا صحيحٌ إلى حدٍّ ما، ولكن ليس إلى كلّ حدّ.

إنّ الأساليب البشريّة، على اختلافها، لن تساعدنا دائماً في تمييز أصحابها أحدها عن الآخر، مهما تباعدوا في الزمان والمكان. وكثيراً ما يتقارب كاتبان في أسلوبيهما، أو أكثر من كاتبين، بحيث يختلط علينا الأمر. وتبرز هذه الحقيقة واضحةً لنا إذا اكتفينا بجملةٍ واحدةٍ لكلٍّ منهم فقارنّاها مع جمل الكتّاب الآخرين.

فمن منّا يستطيع أن ينظر في السبائك التالية، التي جمعناها عشوائياً وسريعاً من أدباء مختلفين، قدماء ومعاصرين، فيخبرنا مهما أنعم النظر فيها:

أيّها للمعرّي، وأيّها لابن المقفّع، وأيّها لابن حزم، وأيّها لطه حسين، وأيّها لمصطفى صادق الرافعيّ؟

- وأمّا الكتابُ فجمَعَ حِكمةً ولهواً
- وإنّ هذا لَيُولِّدُ من الحُزنِ والأسفِ غيرَ قليلٍ
- يبتدعون أساليبَ ومناهجَ في نظمِ الكلام
- لا يخافُ على ولدِه من اليُتْم
- ولكنّ الفنَّ البيانيَّ يرتفعُ على ذلك

إنّ من المستحيل على أيٍّ منّا، مهما ادّعى من براعةٍ أدبيّةٍ ونفاذ بصيرةٍ نقديّة، أن يضع الاسم الصحيح من أسماء هؤلاء الكتّاب الخمسة أمام الجملة الصحيحة، إلّا أن يقع ذلك له مصادفةً، ولكنّ دخول آيةٍ قرآنيّةٍ واحدة، أيّة آيةٍ، طالت أو قصرت، بين هذه الجمل البشريّة الخمس، على اختلاف عصورها وتباعد مدارس أصحابها الأدبيّة، سيجعل من السهل، للحاذق وللمبتدئ على السواء، أن يشير إليها حالاً بإصبعه ليقول، بثقةٍ متناهية: هذه آية[2].

ومعظم ألفاظه لا يتكرّر:

وهذه الظاهرة لا تقتصر على السبائك وحدها. إنّ إحصاءً سريعاً للألفاظ في أيّة صفحةٍ من صفحات (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) تؤكّد لنا بجلاءٍ أنّ معظم ألفاظ القرآن (ما يقرب من الثلثين)، وليس قوالبه التعبيريّة أو

(2) أصحاب هذه الجمل هم على الترتيب: ابن المقفّع (ابن المقفّع، عبد الله. **كليلة ودمنة**. بيروت: دار مكتبة الحياة، 1987، ص68)، وابن حزم (ابن حزم الأندلسيّ. **طوق الحمامة في الألفة والألاّف**. تحقيق إحسان عبّاس. بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، 1993، ص216)، وطه حسين (حسين، طه. **في الأدب الجاهليّ**. القاهرة: دار المعارف، 2001، ص315)، والمعرّي (المعرّي، أبو العلاء. **رسائل أبي العلاء المعرّي**. تحقيق عبد الكريم خليفة. عمّان: اللجنة الأردنيّة للتعريب والترجمة والنشر، 1978، ج3، ص587)، والرافعيّ (**وحي القلم**، ج1، ص16).

سبائكه فحسب، يقتصر ورودها فيه على مرّةٍ واحدة، وهي ظاهرةٌ لغويّةٌ أخرى لا يمكن أن تجدها في كتابٍ بشريٍّ من هذا الحجم على الإطلاق[3].

خذ مثلاً، ودفعاً للانتقائيّة، الصفحة 300 في منتصف هذا المعجم[4] وهي في باب حرف الخاء، وأحصِ الألفاظ التي وردت فيها، فستجد الألفاظ التالية، وقد رتّبتُها هنا ترتيباً تصاعديّاً تبعاً لأرقام تكرارها:

- 16 كلمةً يقتصر ورودها في القرآن على مرّةٍ واحدة: تُخْفوها - نُخْفي - يُخْفِيْنَ - أُخْفِيَ - لِيَستَخْفُوا - خَفِيّ - خَفِيّاً - وأَخْفَى - خافِيَة - مُسْتَخْفٍ - تَخْلُدون - يَخْلُد - أَخْلَدَ - أَخْلَدَه - خالِد - خالِدَين (بالتثنية)
- 3 كلمات ترد في القرآن مرّتين: يُخْفُون - يَسْتَخْفُون - خُفْيَة.
- كلمتان تردان في القرآن 3 مرّات: تُخْفي - خالداً.
- كلمةٌ واحدةٌ ترد في القرآن 6 مرّات: الخُلْد.
- كلمةٌ واحدةٌ ترد في القرآن 25 مرّة: خالِدون.

وهذا يعني أنّ 16 كلمةً من أصل 23 كلمةً وردت في هذه الصفحة لن تجدها في القرآن إلّا مرّةً واحدة، وقس على ذلك معظم بقيّة صفحات المعجم، يُستثنى منها تلك الصفحات التي خُصّصت لألفاظٍ بدهيٍّ أن تتكرّر كثيراً في القرآن مثل: (الله، ربّ، آمنوا، جنّة، جهنّم، قال، قلْ..) فقد تملأ واحدةٌ منها عدّة صفحاتٍ متتاليةٍ من المُعجم.

كثافة السبائك القرآنيّة المتفرّدة:

والغريب، بل المعجِز حقّاً، أنّ السبائك القرآنيّة التي لا تتكرّر أكثرُ من

---

(3) هذا النوع من المعاجم يساعدك في التعرّف على موضع كلّ آيةٍ في القرآن، وفي أيّة سورةٍ هي، إذا تذكّرت كلمةً واحدةً من هذه الآية، فتجد الآية في باب الحرف الأوّل من هذه الكلمة. كما تساعدك هذه المعاجم في معرفة عدد تكرار أيّ لفظٍ في القرآن، وتكرار مشتقّاته، ومواقع ورودها.

(4) عبد الباقي، محمّد فؤاد. **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**. القاهرة: دار الحديث، 1988.

أن تُحصى، وما أسهل أن نضع أيدينا على عددٍ كبيرٍ منها في كلّ صفحةٍ من صفحات الكتاب الكريم.

ولكي تكون أحكامنا موضوعيّةً وغير انتقائيّة، نتوقّف عند أوّل صفحةٍ كاملةٍ من القرآن، وهي تضمّ، في معظم طبعات المصحف المتداولة، الآيات 6 – 16 من سورة (البقرة)، لنتبيّن كثافة السبائك القرآنيّة وتنوّعها فيها.

إنّ من السهل علينا أن نعثر، في هذه الصفحة وحدها، على ثلاثٍ وعشرين سبيكةً على الأقلّ، لكلٍّ منها بناءٌ مختلفٌ ومستقلٌّ، ليس عن السبائك العربيّة، الشعريّة والنثريّة، أو عن سبائك الحديث النبويّ، فحسب، بل عن السبائك الأخرى في الصفحة ذاتها أيضاً. وسنرى أنّها، إلى جانب تفرّدها وتميّزها، ومع التأثير اللغويّ للقرآن في لغتنا واجتذاب أسلوبه الرفيع لأقلام كتّابنا، ظلّ معظمها حتّى اليوم خاصّاً بالتعبير القرآنيّ دون التعبير البشريّ، ولن نجده في أيّة لغةٍ أدبيّةٍ أخرى على مرّ العصور:

1 – ﴿سواءٌ عليهم أأنذرتَهم أم لم تُنذرْهمْ لا يؤمنون﴾

2 – ﴿ولهمْ عذابٌ عظيم ﴾

3 – ﴿ومِنَ الناسِ من يقولُ آمنّا﴾

4 – ﴿وما همْ بمؤمنين﴾

5 – ﴿وما يَخدعون إلا أنفسَهم وما يَشعرون﴾

6 – ﴿في قلوبِهم مرضٌ فزادهمُ اللهُ مرضاً﴾

7 – ﴿ولهمْ عذابٌ أليمٌ﴾ (تكرار للسبيكة رقم 2)

8 – ﴿بما كانوا يَكذِبون﴾

9 – ﴿وإذا قيل لهم لا تُفسِدوا في الأرض﴾

10 – ﴿إنّما نحن مُصْلِحون﴾

11 – ﴿ألا إنّهمْ همُ المفسِدون﴾

12 – ﴿ولكنْ لا يشعُرون﴾

13 – ﴿وإذا قيلَ لهمْ آمِنوا كما آمَنَ الناس﴾

14 - ﴿قالوا أنؤمِنُ كما آمنَ السفهاء﴾

15 - ﴿ألا إنّهمْ همُ السفهاءُ﴾ (تكرار للسبيكة رقم 11)

16 - ﴿ولكنْ لا يَعلمون﴾ (تكرار للسبيكة رقم 12)

17 - ﴿وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمنّا﴾

18 - ﴿وإذا خَلَوا إلى شياطينِهم﴾

19 - ﴿إنّما نحن مستهزئون﴾ (تكرار للسبيكة رقم 10)

20 - ﴿اللهُ يستهزئُ بهمْ﴾

21 - ﴿ويَمدُّهم في طغيانِهم يَعمَهون﴾

22 - ﴿أولئك الذين اشترَوا الضَلالةَ بالهُدَى﴾

23 - ﴿وما كانوا مُهتدين﴾[5].

إنّ هناك أربع سبائك فحسب تكرّرت مرّتين دون بقيّة السبائك، ولكنّ السبائك الثلاث والعشرين جميعاً هي سبائك قرآنيّةٌ لا تشبه أيّاً من سبائكنا اللغويّة البشريّة، أو سبائك الحديث النبويّ.

فكيف واجه العرب الجاهليّون هذه العاصفة التعبيريّة التي هبّت عليهم من مكّة؟ وفي أيّ موقعٍ وقفت لغة القرآن الكريم بإزاء تلك المؤسّسة اللغويّة الضخمة التي ازدهرت فجأةً، وفي زمنٍ قياسيّ، قبل الإسلام؟ كيف ستكون ردّة فعل العرب، الذين اعتادوا أن يبيعوا ويشتروا في سوقٍ لغويّةٍ لا تعرف إلّا بضع عشراتٍ، أو مئاتٍ، من السبائك الأساسيّة التقليديّة المتكرّرة، وهم يواجهون على حين غرّةٍ كتاباً مرصوصاً بآلاف السبائك الجديدة التي لم يعرفها شعرهم ولا نثرهم من قبل، ثمّ لن يَعرفاها من بَعد؟

ولنحاول أن نقرّب الصورة أكثر. كم نوعاً من الحجارة نستعمل الآن في بناء بيوتنا؟ خمسة؟ عشرة؟ عشرين؟ خمسين على الأكثر؟ ماذا لو أُغرِق السوق فجأةً بعشرة آلافِ نوعٍ جديدٍ من الحجارة لا تمتّ بصِلةٍ إلى أيٍّ من

(5) الآيات 6-16 من سورة البقرة.

obeikan.com

الأنواع القليلة التقليديّة؟ ماذا سيحدث لتجّار البناء وللبنّائين وللناس جميعاً حين يقفون حائرين أمام هذه الآلاف من الأنواع الجديدة للحجارة، وهم لا يملكون في متاجرهم وورشاتهم وبيوتهم وتصميماتهم إلّا تلك الأنواع القديمة المحدودة؟

بل ماذا سيفعل مهندسو البناء وهم ينظرون بحسرةٍ إلى هذه الحجارة الجديدة، وعلومُهم الهندسيّة، بقواعدها الكثيرة المتوارثة، غير قادرةٍ على استيعابها، ومخطّطاتهم عاجزةٌ عن استخدامها في الأبنية التي غدوا الآن يحلمون في بنائها وإقامة جدرانها بها؟

هذا ما سيحاول الفصل التالي البحثَ عن إجابةٍ عنه.

obeikan.com